

وأرواح شخصيات من عهد الآلهة والفنانين الذين تصفهم أساطير الأولين ، ليدور الحديث بينها في الموضوع على التبيين من سيرة الإنسانية منذ نشأتها حتى اليوم ؛ وجعل رمزاً إلى القدرة سمّاه : « صوت السماء » ، ليهديها إلى حقيقة القدر ؛ وفرض أن حرم الزاهة والطهر في السماء مسرح فسيح الأرجاء ، يقع فيه ما تصور من انطلاق تلك الأرواح في سحرها ، ومن حركاتها وإشاراتهما - ودلالات ملاحظتها في محاورتها ، ومن مرور الغنّان بها وهو في صحبة ملك يجوب به أجواز السماء ، ومن اشتراك الثاني في المحاور ، ثم الأول إلى لحظة بعثه ...

ذلك هو الخيال الأصلي في الملحمة ؛ أما فروعه وحواشيه ، فهي الخيالات البلاغية في الأسلوب ، وقد زان الأصل والفرع من هذا الخيال ، وزاد مزيجته أعلق فكرية تتعلّق بالفرزة والنفس والجمال وبالحياة الاجتماعية ، ولطائف أدبية كالإشارة إلى مانا وفنون هاواي ، وإلى خروج موسى بيني إسرائيل من مصر ، وقصته في أرض مدين

فهذه غميلة قادرة اقتطفت من معارف الشاعر ، وغيّرت ما كان بين المقتطف وغيره من أوضاع العلاقة والمناسبة ، وأنشأت بذلك معاني وصوراً ومشاهد مثالية ، أي لم توجد مجتمعة في الحقيقة وإن عرفت أقسامها متفرقة ؛ وأحيت أبطالاً خياليين فكأنك تراهم في متحدتهم ، وتداخلك حساسات وخوارج من تحضرم ؛ وأودعت الملحمة أثمار فروعها من الألمية والبسمة وغيرها ... فن الألمية في تشبيهات جديدة قوله :

على مذبح الحب من قلبها سراج يسبح من الآله
.....
وتمشي الحياة علي نوره وما نوره غير عين امرأة
أهل قلب كفرخ القطا يرغرف تحت جناح القدر
هو للرح الشارد السهام شرود الفراشة عند المساء
ومن الألمية في إدراك ما لا يرى في الشيء أول وهلة
وهو على الحقيقة فيه :

هو الحب ؟ ... لا ... بل نداء الحياة

تلييه أجسادنا الظامسة
ومن الألمية في توحيد المتضادين :

هنالك (في الأرض) حيث تشب الحياة

وحيث الوجود جنين العدم

« أرواح وأشباح »

تحفة فنية

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

خلقها صاحبها الأستاذ على محمود طه الشاعر للملم ، فسواها صنيعاً شائقاً يمتع الأدياء أنفسهم وألبابهم بجمالها ، ويكبرونه لطرافته وما فيه من أسرار الفن والشعر ... فإهي هذه الأسرار ؟ إن هذا الصنيع منظوفة أنافت على أربعمائة بيت في شأن معنى الإنسانية بأسرها ، لأنه يتعلّق بالفطرة البشرية ؛ استوحى الشاعر فيها أساطير الإغريق الشعرية ، وسيرة « آدم » و « حواء » ، ومعنى هبوطهما من الملأ الأعلى ، وخبرة الفنان في حياة الإنسان ؛ وقاض شعره من نفس جياشة وغميلة قادرة أرتة أبطاله كأنهم أحياء يسمع أصواتهم ؛ ووجدت قريحته في تصويرهم ، حتى كان من سحر قته أن جعل قراءه يرونهم ويسمعون حديثهم ، كما رآهم وسمعهم في خياله

بهذه المميزات مجتمعة استحق الصنيع اسم ملحمة^(١) ، وعظم شأنه في الأدب العربي

ليمت ملحمة حماسية ، بل هي قصة الروح والجسد في محاور موضوعها تجاذب الرجل والمرأة وأثر الفرزة في الفن بينهما ؛ وهذا موضوع جدتي بيد النور ، أحسن معالجته شاعر مثقف

فإهي عناصر الشعر في هذه الملحمة ؟ إنها أثمار الخيالة والشعور وهزّة الإلهام ...

إن الشاعر تخيّل الروح في عالم الأرواح ، مجردة يقظي لفضيلتها لللائكية ؛ وتخيّلها - على الأرض - ناعمة في طيفها منذ أمّها وتضمّنها ضيقاً تصوّنها في الإنسان ... وتصوّر أرواحاً زينة تتحدث في الفن الرفيع بين الرجل والمرأة ، وفي الجمال والشهوات والأهواء ، وفي الخطيئة وتبعاتها على الرجل هي أم على المرأة ؟

واختار لهذه المحادثة روح فنان شاعر حان بعثه في الأرض ،
(١) كلمة استعملها اللربون أولاً اسماً لكون الأصلي الأوفر في الأدب الأجنبي من هنا الفن

وإذا ما تضاعف نشاط الهمن والخيلة ، وزادت يقظة الشعور حتى تنهى نشاطهما ويقظته معاً ، فذلك فوران النفس الشحوذ في الشاعر الموهوب فوراناً يضطره إلى الإفضاء بما يخامرها ، فيتبثت منها الشعر ؛ وذلك هو شيطان الشاعر في حصة تجليه ؛ وتلك هي الملكة أعظم ما تكون حرية وانطلاقاً ، وأرفع ما تكون سمواً ، وهي بعينها هزئة الإلهام التي ابتدع هذا الصنيع الباهر ولقد كملت صفاته الشعرية بما عليه من مسحة عقلية ، لا من العقل الفلسفي الهادي ، بل من العقل الذي جعل اللحمة مشابهة للحقيقة ، إذ خلت من التناقض في مواقف أبطالها وفي نفوسهم الظاهرة أحوالها من كلامهم على ما شاءت لهم القطرة والأندار واستقام في خيال الشاعر .

ومما زاد للحمة مشابهة للحقيقة إتهان المحاورة بين أبطالها ، إتهاناً جعلها حية ، طبيعية ، شائعة ، فقد أبدى كل منهم رأياً وعرض حججه ، وفي كل من آرائهم شيء مقبول ، أو على ظاهر من الحق ؛ وكان كلامهم سؤالاً يستدعي جواباً ، أو قولاً يجلب اعتراضاً أو تحديراً ؛ واستيقافاً يسلم صاحبه جدلاً ، أو يبدى تحفظاً ؛ وبياناً يحوز موافقة ، أو يثير دهشة أو إعجاباً ثم إن هذا الموضوع خرج في وحدة سالمة من الاضطراب ومن النظام الرتيب ، إذ له مدخل شعري لطيف الإشارة إلى الغرض منه ، ووسط يشرحه ، وخاتمة يحسن السكوت عليها ؛ وأجزاؤه مرتبة ترتيباً يوثق العلاقة بينها ، ويشد فيه بعضها بعضاً ، ويجمع بينها ارتباط قوى .

ومن صفات هذه اللحمة وضوح موضوعها لأن وقائمه مختارة بدق سليم ، سلسلة سلسلة طبيعية معقولة ، خالصة من كل قصيل لا طائل وراءه ، ومن كل حادث أو موقف ليس يوافق شرح هذا الموضوع أو ليس بسيله .

وزد أن اللحمة كلها شائعة جد شائعة بما بين أجزائها من تناسب موقف ، وبما فيها من إشارة - عن بصيرة وفي قصد - إلى الأسباب في أقوال أبطالها وفي حركاتهم ، ومن تشويق إلى الوقوف على الحكم في آرائهم الشائعة في ذاتها ، وإن كانت لا تحول حيولة دون تمكين البصير من حزره قبل الأوان ؛ وأيضاً أن عنصر الوحداتيات داخل في المواضع الملائمة من الكلام المزدان - على اعتدال - بخواطر نيرة ، وهبارات أنيقة وإشارات بارعة . ومن إشارات :

.....
وحيث السعادة بنت الخيال ولتسها من معاني الألم
سلا مجده الضخم في قبلة تذل وتسد من ذاتها
ومن البدنية كلمة تاييس ، حين وصل الشاعر في وصفه
حواء إلى هذا البيت :

فيا لك من طفلة فذة ورحاك سيّدة العالم !
وقالت بليتيس : يحاول بالشعر إغراءنا ...

هو الموقف الضحك ما يتقيه
قالت تاييس على الفور : كما يتق يا شقى مائده
فجاءت بأبلغ ما يحظر للموافق ويناسب المقام .

أما الشعور فأتماره ما خامر اللحمة من الوجدانيات ؛ وهي عنصر أسلمي في كنه الشعر كالخيال : لأن الحب والبغض ، واللذة والألم ، أمور توجد في صميم الشهوات والأهواء والخواجج الإنسانية جميعاً ، أيما كان باعثها وكان الإسم الذي تسمى به ؛ والأصل أن خاصّة التلذذ والتألم والحب والبغض ، وطلب كل جميل ورتق وخير ، وتجنب كل قبيح وضر وشر ، هي خاصة في البشر أجمعين . ولذا فإن كل حصة تعرو نفس إنسان وصفها وصفاً صادقاً مجدها صدى في القلوب . وشاعرنا الملمهم صادق الوصف في ملحته . وحسبنا شاهداً وقع هذه الأبيات من وصفه حواء :

وكم ذكريات لها عذبة أعيش عليها وأحيا بها
يسألني القلب عن أمرها وأسأله أنا عن سرها
ويعطيني في الهوى ضمها وأنسى بآني في أمرها

.....
أحاول أفهمها مرة فأعيا بها وتفكيرها
ومن وصفه استنكار بليتيس في غضبها على الفنان :

تأتم بالفرن حتى غوى وما الفن بالمرأة الخاطئة
.....

ألم ينعم الخلد من عطرها ألم يبعد الحسن في زهرها ؟
ومن وصفه هوى الانتقام في بليتيس إذ تقول :

أدله هذا الفتى
واعترض في قلبه زهرة من الشر راوية نامية

.....
إذا استأفها الرجل المبقرى نحول كالحيوان الورخ
تضج البلاهة من حوله وينظر كالصم البنسم